❁ ❁ ❁

تفسير سورة الانفطار

وهي مكية. قال النسائي: أخبرنا محمد بن قدامة، حدثنا جرير عن الأعمش، عن محارب بن دثار، عن جابر قال: قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطوّل، فقال النبي ﷺ: «أفتان يا معاذ؟! أفتان يا معاذ؟! أين كنت عن سبح اسم ربك الأعلى، والضحى، وإذا السماء انفطرت؟!». وأصل الحديث مخرج في الصحيحين، ولكن ذُكر ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾ في أفراد النسائي. وتقدم

من رواية عبد الله بن عمر، عن النبي ﷺ قال: «من سرّه أن يَنْظُر إلى القيامة رأي عين فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ①﴾ و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ①﴾ و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ①﴾».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ① وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ② وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ③ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ④ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ⑤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ⑥ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ⑦ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ⑧ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ⑨ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ⑪ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ⑫﴾.

يقول تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ①﴾ أي: انشقت. كما قال: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨]. ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ②﴾ أي: تساقطت. ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ③﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: فجر الله بعضها في بعض. وقال الحسن: فجر الله بعضها في بعض، فذهب ماؤها. وقال قتادة: اختلط مالحها بعذبها. وقال الكلبي: ملئت. ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ④﴾: قال ابن عباس: بُحِثَت. وقال السدي: تُبَعثر: تُحرك فيخرج من فيها. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ⑤﴾ أي: إذا كان هذا حصل هذا. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ⑥﴾؟: هذا تهديد، لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب، حيث قال: ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾، حتى يقول قائلهم: غره كرمه. بل المعنى في هذه الآية: ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم - أي: العظيم - حتى أقدمت على معصيته، وقابلته بما لا يليق؟ كما جاء في الحديث: «يقول الله يوم القيامة: ابن آدم، ما غرك بي؟ ابن آدم، ماذا أجبت المرسلين؟». قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان: أن عمر سمع رجلاً يقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ⑥﴾، فقال عمر: الجهل. وقال أيضاً: حدثنا عمر بن شبّة، حدثنا أبو خلف، حدثنا يحيى البكاء، سمعت ابن عمر يقول وقرأ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ⑥﴾ قال ابن عمر: غره - والله - جهله. قال: ورُوي عن ابن عباس، والربيع بن خُثَيم، والحسن، مثلُ ذلك. وقال قتادة: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾: شيء، ما غرّ ابن آدم غير هذا العدو الشيطان. وقال الفضيل بن عياض: لو قال لي: «ما غرك بي»، لقلت: سُتُورك المُرخاة. وقال أبو بكر الوراق: لو قال لي: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ لقلت: غرني كرم الكريم. قال البغوي: وقال بعض أهل الإشارة: إنما قال: ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته، كأنه لقنه الإجابة. وهذا الذي تخيله هذا القائل ليس بطائل؛ لأنه إنما أتى باسمه ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾، لينبه على أنه لا ينبغي أن يُقابل الكريم بالأفعال القبيحة، وأعمال السوء. وقد حكى البغوي، عن الكلبي ومقاتل أنهما قالا: نزلت هذه الآية في الأسود بن شريق، ضرب النبي ﷺ ولم يعاقب في الحالة الراهنة، فأنزل الله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؟ وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ⑦﴾ أي: ما غرك بالرب الكريم ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ⑦﴾ أي: جعلك سوياً معتدل القامة منتصبها، في أحسن الهيئات والأشكال. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا حريزٌ، حدثني عبد الرحمن بن ميسرة، عن جُبير بن نُفير، عن بُسر بن جحاش القرشي: أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه، فوضع عليها إصبعه، ثم قال: «قال الله ﷻ: ابن آدم، أنّى تُعجزني وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سوّيتك وعدلتك، مشيت بين بردين وللأرض منك وئيدٌ، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدقُ، وأنّى أوانُ الصدقة». وكذا رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يزيد بن هارون، عن حريز بن عثمان، به.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزّي: وتابعه يحيى بن حمزة، عن ثور بن يزيد، عن عبد الرحمن بن ميسرة. وقوله: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ⑧﴾: قال مجاهد: في أي شبه أب أو أم أو خال أو عم؟ وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سنان القزاز، حدثنا مُطهّر بن الهيثم، حدثنا موسى بنُ عُليّ بن رباح، حدثني أبي، عن جدي: أن النبي ﷺ قال له: «ما ولد لك؟» قال: يا رسول الله، ما عسى أن يُولد لي؟ إما غلام وإما جارية. قال: «فمن يشبه؟». قال: يا رسول الله، من عسى أن يشبه؟ إما أباه وإما أمه. فقال النبي ﷺ عندها: «مه. لا تقولنّ هكذا، إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم؟ أما قرأت هذه الآية في كتاب الله: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ⑧﴾» قال: سلكك. وهكذا رواه ابن أبي حاتم والطبراني، من حديث مُطهر بن الهيثم، به. وهذا الحديث لو صح لكان فيصلاً في هذه الآية، ولكن إسناده ليس بالثابت؛ لأن «مُطهّر بن الهيثم» قال فيه أبو سعيد بن يونس: كان متروك الحديث. وقال ابن حبان: يروي عن موسى بن علي وغيره ما لا يُشبهُ حديث الأثبات. ولكن في الصحيحين عن أبي هريرة أن رجُلاً قال: يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلاماً أسود؟ قال: «هل لك من إبل؟». قال: نعم. قال: «فما ألوانها؟» قال: يكون حُمر. قال: «فهل فيها من أورق؟» قال: نعم. قال: «فأنى أتاها ذلك؟»

قال: عسى أن يكون نزعة عرق. قال: «وهذا عسى أن يكون نزعة عرق». وقد قال عكرمة في قوله: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨﴾: إن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير. وكذا قال أبو صالح: إن شاء في صورة كلب، وإن شاء في صورة حمار، وإن شاء في صورة خنزير. وقال قتادة: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨﴾، قال: قادر ـ والله ـ ربنا على ذلك. ومعنى هذا القول عند هؤلاء: أن الله، ﷻ، قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدل تام، حسن المنظر والهيئة. وقوله: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩﴾ أي: بل إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي، تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾ يعني: وإن عليكم لملائكة حفظة كراماً فلا تقابلوهم بالقبائح، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطُّنافسيّ، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان ومسعر، عن علقمة بن مرثد، عن مجاهد قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين: الجنابة والغائط. فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجرم حائط أو ببعيره، أو ليستره أخوه».

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار، فوصله بلفظ آخر، فقال: حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن حفص بن سليمان، عن علقمة بن مرثد، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم عن التعرّي، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم، الكرام الكاتبين، الذين لا يُفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات: الغائط، والجنابة، والغسل. فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه، أو بجرم حائط، أو ببعيره». ثم قال: حفص بن سليمان لين الحديث، وقد روي عنه، واحتمل حديثه. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا زياد بن أيوب، حدثنا مُبشّر بن إسماعيل الحلبي، حدثنا تمام بن نجيح، عن الحسن ـ يعني البصري ـ عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من حافظين يرفعان إلى الله ﷻ، ما حفظا في يوم، فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفار إلا قال الله تعالى: قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة». ثم قال: تفرد به تمام بن نجيح، وهو صالح الحديث. قلت: وثقه ابن معين وضعفه البخاري، وأبو زُرعة، وابن أبي حاتم، والنسائي، وابن عدي. ورماه ابن حبان بالوضع. وقال الإمام أحمد: لا أعرف حقيقة أمره. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إسحاق بن سليمان البغدادي المعروف بالقُلُوسي، حدثنا بيان بن حمران، حدثنا سلام، عن منصور بن زاذان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يعرفون بني آدم ـ وأحسبه قال: ويعرفون أعمالهم ـ فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله ذكروه بينهم وسموه، وقالوا: أفلح الليلة فلان، نجا الليلة فلان. وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله ذكروه بينهم وسمَّوه، وقالوا: هلك الليلة فلان». ثم قال البزار: سلام هذا، أحسبه سلام المدائني، وهو لين الحديث.

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾.

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم، وهم الذين أطاعوا الله ﷻ، ولم يقابلوه بالمعاصي. وقد روى ابن عساكر في ترجمة «موسى بن محمد»، عن هشام بن عمار، عن عيسى بن يونس بن أبي إسحاق، عن عبيد الله، عن محارب، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «إنما سماهم الله الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء». ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم؛ ولهذا قال: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥﴾ أي: يوم الحساب والجزاء والقيامة، ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦﴾ أي: لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة، ولو يوماً واحداً. وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة، ثم أكده بقوله: ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨﴾، ثم فسره بقوله: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ أي: لا يقدر واحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى. ونذكر ها هنا حديث: «يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، لا أملك لكم من الله شيئاً». وقد تقدم في آخر تفسير سورة الشعراء؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾، كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وكقوله: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [الفرقان: ٢٦]، وكقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة: ٤]. قال قتادة: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾، والأمر ـ والله ـ اليوم لله، ولكنه يومئذٍ لا ينازعه أحد.

آخر تفسير سورة «الانفطار» ولله الحمد

(٨٢) سورة الانفطار مكية وآياتها تسع عشرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾

اعلم أن المراد أنه إذا وقعت هـذه الأشياء التي هي أشراط الساعة ، فهناك يحصل الحشر والنشر ، وفي تفسير هذه الآيات مقامات (الأول) في تفسير كل واحد من هذه الأشياء التي هي أشراط الساعة وهي ههنا أربعة ، اثنان منها تتعلق بالعلويات ، وإثنان آخران تتعلق بالسفليات (الأول) قوله (إذا السماء انفطرت) أي انشقت وهو كقوله (ويوم تشقق السماء بالغمام) . (إذا السماء انشقت) ، (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) . (وفتحت السماء فكانت أبواباً) و(السماء منفطر به) قال الخليل : ولم يأت هذا على الفعل ، بل هو كقولهم مرضع وحائض ، ولو كان على الفعل لكان منفطرة كما قال (إذا السماء انفطرت) أما الثاني وهو قوله (وإذا الكواكب انتثرت) فالمعنى ظاهر لأن عند انتقاض تركيب السماء لا بد من انتثار الكواكب على الأرض .

واعلم أنا ذكرنا في بعض السورة المتقدمة أن الفلاسفة ينكرون إمكان الخرق والالتئام على الأفلاك ، ودليلنا على إمكان ذلك أن الأجسام متماثلة في كونها أجساماً ، فوجب أن يصح على كل واحد منها ما يصح على الآخر ، إنما قلنا إنها متماثلة لأنه يصح تقسيمها إلى السماوية والأرضية ومورد التقسيم مشترك بين القسمين ، فالعلويات والسفليات مشتركة في أنها أجسام ، وإنما قلنا إنه متى كان كذلك وجب أن يصح على العلويات ما يصح على السفليات ، لأن المتماثلات حكمها واحد فمتى يصح حكم على واحد منها ، وجب أن يصح على الباقي ، وأما الإثنان السفليان : (فأحدهما) قوله (وإذا البحار فجرت) وفيه وجوه (أحدها) أنه ينفذ بعض البحار في البعض بارتفاع الحاجز الذي جعله الله برزخاً ، وحينئذ يصير الكل بحراً واحداً ، وإنما يرتفع ذلك

الحاجز لتزلزل الأرض وتصدعها (وثانيها) أن مياه البحار الآن راكدة مجتمعة ، فإذا فجرت تفرقت وذهب ماؤها (وثالثها) قال الحسن فجرت أى يبست .

واعلم أن على الوجوه الثلاثة ، فالمراد أنه تتغير البحار عن صورتها الأصلية وصفتها ، وهو كما ذكر أنه تغير الأرض عن صفتها فى قوله (يوم تبدل الأرض غير الأرض) وتغير الجبال عن صفتها فى قوله (فقل ينسفها ربى نسفاً ، فيذرها قاعاً صفصفاً) (ورابعها) قرأ بعضهم (فجرت) بالتخيفف ، وقرأ مجاهد (فجرت) على البناء للفاعل والتخفيف ، بمعنى بغت لزوال البرزخ نظراً إلى قوله (لا يبغيان) لأن البغي والفجور أخوان .

﴿ وأما الثانى ﴾ فقوله (وإذا القبور بعثرت) فاعلم أن بعثر وبحثر بمعنى واحد ، ومركبان من البعث والبحث مع راء مضمومة إليهما ، والمعنى أثيرت وقلب أسفلها أعلاها وباطنها ظاهرها ، ثم ههنا وجهان (أحدهما) أن القبور تبعثر بأن يخرج ما فيها من الموتى أحياء ، كما قال تعالى (وأخرجت الأرض أثقالها) (والثانى) أنها تبعثر لإخراج ما فى بطنها من الذهب والفضة ، وذلك لأن من أشراط الساعة أن تخرج الأرض أفلاذ كبدها من ذهبها وفضتها ، ثم يكون بعد ذلك خروج الموتى ، والأول أقرب ، لأن دلالة القبور على الأول أتم .

﴿ المقام الثانى ﴾ في فائدة هذا الترتيب ، واعلم أن المراد من هذه الآيات بيان تخريب العالم وفناء الدنيا ، وانقطاع التكاليف ، والسماء كالسقف ، والأرض كالبناء ، ومن أراد تخريب دار ، فإنه يبدأ أولا بتخريب السقف ، وذلك هو قوله (إذا السماء انفطرت) ثم يلزم من تخريب السماء انتثار الكواكب ، وذلك هو قوله (وإذا الكواكب انتثرت) ثم إنه تعالى بعد تخريب السماء والكواكب يخرب كل ما على وجه الأرض وهو قوله (وإذا البحار فجرت) ثم إنه تعالى يخرب آخر الأمر الأرض التى هى البناء ، وذلك هو قوله (وإذا القبور بعثرت) فإنه إشارة إلى قلب الأرض ظهراً لبطن ، وبطناً لظهر .

﴿المقام الثالث﴾ فى تفسير قوله (علمت نفس ما قدمت وأخرت) وفيه احتمالان (الأول) أن المراد بهذه الأمور ذكر يوم القيامة ، ثم فيه وجوه (أحدها) وهو الأصح أن المقصود منه الزجر عن المعصية ، والترغيب فى الطاعة ، أى يعلم كل أحد فى هذا اليوم ما قدم ، فلم يقصر فيه وما أخر فقصر فيه ، لأن قوله (ماقدمت) يقتضى فعلا و (ما أخرت) يقتضى تركا ، فهذا الكلام يقتضى فعلا وتركا وتقصيراً وتوفيراً ، فإن كان قدم الكبائر وأخر العمل الصالح فمأواه النار ، وإن كان قدم العمل الصالح وأخر الكبائر فمأواه الجنة (وثانيها) ما قدمت من عمل أدخله فى الوجود وما أخرت من سنة يستن بها من بعده من خير أو شر (وثالثها) قال الضحاك ما قدمت من الفرائض وما أخرت أى ماضيعت (ورابعها) قال أبو مسلم ما قدمت من الأعمال فى أول عمرها وما أخرت فى آخر عمرها ، فإن قيل وفى أى موقف من مواقف القيامة يحصل هذا العلم ؟ قلنا أما

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾

العلم الإجمالى فيحصل فى أول زمان الحشر ، لأن المطيع يرى آثار السعادة ، والعاصى يرى آثار الشقاوة فى أول الأمر . وأما العلم التفصيل ، فإنما يحصل عند قراءه الكتب والمحاسبة .

﴿ الاحتمال الثانى ﴾ أن يكون المراد قبل قيام القيامة بل عند ظهور أشراط الساعة وانقطاع التكاليف ، وحين لا ينفع العمل بعد ذلك كما قال (لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً) فيكون ما عمله الإنسان إلى تلك الغاية ، هو أول أعماله وآخرها ، لأنه لا عمل له بعد ذلك ، وهذا القول ذكره القفال .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان ماغرك بربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾

اعلم أنه سبحانه لما أخبر فى الآية الأولى عن وقوع الحشر والنشر ذكر فى هذه الآية ما يدل عقلا على إمكانه أو على وقوعه ، وذلك من وجهين (الأول) أن الإله الكريم الذى لا يجوز من كرمه أن يقطع موائد نعمه عن المذنبين ، كيف يجوز فى كرمه أن لا ينتقم للمظلوم من الظالم ؟ (الثانى) أن القادر الذى خلق هذه البنية الإنسانية ثم سواها وعدلها ، إما أن يقال إنه خلقها لا لحكمة أو لحكمة ، فإن خلقها لا لحكمة كان ذلك عبثاً ، وهو غير جائز على الحكيم . وإن خلقها لحكمة ، فتلك الحكمة ، إما أن تكون عائدة إلى الله تعالى أو إلى العبد ، والأول باطل لأنه سبحانه متعال عن الاستكمال والانتفاع . فتعين الثانى ، وهو أنه خلق الخلق لحكمة عائدة إلى العبد ، وتلك الحكمة إما أن تظهر فى الدنيا أو فى دار سوى الدنيا . والأول باطل لأن الدنيا دار بلاء وامتحان ، لادار الانتفاع والجزاء ، ولما بطل كل ذلك ثبت أنه لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى ، فثبت أن الاعتراف بوجود الإله الكريم الذى يقدر على الخلق والتسوية والتعديل يوجب على العاقل أن يقطع بأنه سبحانه يبعث الأموات ويحشرهم ، وذلك يمنعهم من الاعتراف بعدم الحشر والنشر ، وهذا الاستدلال هو الذى ذكر بعينه فى سورة التين حيث قال (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) إلى أن قال (فما يكذبك بعد بالدين) وهذه المحاجة تصلح مع العرب الذين كانوا مقرين بالصانع وينكرون الإعادة ، وتصلح أيضا مع من ينفى الإبتداء والإعادة معاً ، لأن الخلق المعدل يدل على الصانع وبواسطته يدل على صحة القول بالحشر والنشر ، فإن قيل بناء هذا الاستدلال على أنه تعالى حكيم ، ولذلك قال فى سورة التين بعد هذا الاستدلال (أليس الله بأحكم الحاكمين) فكان يجب أن يقول فى هذه السورة : ما غرك بربك الحكيم (الجواب) أن الكريم

يجب أن يكون حكيماً ، لأن إيصال النعمة إلى الغير لو لم يكن مبنياً على داعية الحكمة لكان ذلك تبذيراً لا كرماً . أما إذا كان مبنياً على داعية الحكمة فحينئذ يسمى كرماً ، إذا ثبت هذا فنقول : كونه كريماً يدل على وقوع الحشر من وجهين كما قررناه . أما كونه حكيماً فإنه يدل على وقوع الحشر من هذا الوجه الثانى ، فكان ذكر الكريم ههنا أولى من ذكر الحكيم ، هذا هو تمام الكلام فى كيفية النظم ، ولنرجع إلى التفسير . أما قوله (يا أيها الإنسان) ففيه قولان (أحدهما) أنه الكافر ، لقوله من بعد ذلك (كلا بل تكذبون بالدين) وقال عطاء عن ابن عباس : نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وقال الكلبى ومقاتل : نزلت فى ابن الأسد بن كلدة بن أسيد ، وذلك أنه ضرب النبى ﷺ فلم يعاقبه الله تعالى ، وأنزل هذه الآية (والقول الثانى) أنه يتناول جميع العصاة وهو الأقرب ، لأن خصوص السبب لا يقدح فى عموم اللفظ . أما قوله (ما غرك بربك الكريم) فالمراد الذى خدعك وسول لك الباطل حتى تركت الواجبات وأتيت بالمحرمات ، والمعنى ما الذى أمنك من عقابه ، يقال غره بفلان إذا أمنه المحذور من جهته مع أنه غير مأمون ، وهو كقوله (لا يغرنكم بالله الغرور) هذا إذا حملنا قوله (يا أيها الإنسان) على جميع العصاة ، وأما إذا حملناه على الكافر ، فالمعنى ما الذى دعاك إلى الكفر والجحد بالرسل ، وإنكار الحشر والنشر ، وههنا سؤالات .

﴿ الأول ﴾ أن كونه كريماً يقتضى أن يغتر الإنسان بكرمه بدليل المعقول والمنقول ، أما المعقول فهو أن الجود إفادة ما ينبغى لا لعوض ، فلما كان الحق تعالى جواداً مطلقاً لم يكن مستعيضاً ، ومتى كان كذلك استوى عنده طاعة المطيعين ، وعصيان المذنبين ، وهذا يوجب الاغترار لأنه من البعيد أن يقدم الغنى على إيلام الضعيف من غير فائدة أصلا ، وأما المنقول فما روى عن على عليه السلام ، أنه دعا غلامه مرات فلم يجبه ، فنظر فإذا هو بالباب ، فقال له : لم لم تجبنى ؟ فقال لثقتى بحلمك ، وأمنى من عقوبتك ، فاستحسن جوابه ، وأعتقه ، وقالوا أيضاً : من كرم الرجل سوء أدب غلمانه ، ولما ثبت أن كرمه يقتضى الاغترار به ، فكيف جعله ههنا مانعاً من الاغترار به ؟ (والجواب) من وجوه (أحدها) أن معنى الآية أنك لما كنت ترى حلم الله على خلقه ظننت أن ذلك لأنه لا حساب ولا دار إلا هذه الدار ، فما الذى دعاك إلى هذا الاغترار ، وجرأك على إنكار الحشر والنشر؟ فإن ربك كريم ، فهو لكرمه لا يعاجل بالعقوبة بسطاً فى مدة التوبة ، وتأخيراً للجزاء إلى أن يجمع الناس فى الدار التى جعلها لهم للجزاء ، فالحاصل أن ترك المعاجلة بالعقوبة لأجل الكرم ، وذلك لا يقتضى الاغترار بأنه لا دار بعد هذه الدار (وثانيها) أن كرمه لما بلغ إلى حيث لا يمنع من العاصى موائد لطفه ، فبأن ينتقم للمظلوم من الظالم ، كان أولى فإذن كونه كريماً يقتضى الخوف الشديد من هذا الاعتبار ، وترك الجراءة والاغترار (وثالثها) أن كثرة الكرم توجب الجد والاجتهاد فى الخدمة والاستحياء من الإغترار والتوانى (ورابعها) قال بعض الناس

إنما قال (بربك الكريم) ليكون ذلك جواباً عن ذلك السؤال حتى يقول غرني كرمك ، ولولا كرمك لما فعلت لأنك رأيت فسترت ، وقدرت فأمهلت ، وهذا الجواب إنما يصح إذا كان المراد من قوله (يا أيها الإنسان) ليس الكافر .

﴿ السؤال الثاني ﴾ ما الذي ذكره المفسرون في سبب هذا الاغترار ؟ قلنا وجوه (أحدها) قال قتادة سبب غرور ابن آدم تسويل الشيطان له (وثانيها) قال الحسن غره حمقه وجهله (وثالثها) قال مقاتل ، غره عفو الله عنه حين لم يعاقبه في أول أمره ، وقيل للفضيل بن عياض إذا أقامك الله يوم القيامة ، وقال لك (ما غرك بربك الكريم) ماذا تقول ؟ قال أقول غرتني ستورك المرخاة .

﴿ السؤال الثالث ﴾ ما معنى قراءة سعيد بن جبير ماأغرك ؟ (قلنا) هو إما على التعجب وإما على الاستفهام من قولك غر الرجل فهو غار إذا غفل ، ومن قولك بيتهم العدو وهم غارون ، وأغره غيره جعله غاراً ، أما قوله تعالى (الذي خلقك) فاعلم أنه تعالى لما وصف نفسه بالكرم ذكر هذه الأمور الثلاثة كالدلالة على تحقق ذلك الكرم (أولها) الخلق وهو قوله (الذي خلقك) ولا شك أنه كرم وجود لأن الوجود خير من العدم ، والحياة خير من الموت ، وهو الذي قال (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم) ، (وثانيها) قوله (فسواك) أي جعلك سوياً سالم الأعضاء تسمع وتبصر ، ونظيره قوله (أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا) قال ذو النون سواك أي سخر لك المكونات أجمع ، وما جعلك مسخراً لشيء منها ، ثم أنطق لسانك بالذكر ، وقلبك بالعقل ، وروحك بالمعرفة ، وسرك بالإيمان ، وشرفك بالأمر والنهي وفضلك على كثير ممن خلق تفضيلا (وثالثها) قوله (فعدلك) وفيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ قال مقاتل يريد عدل خلقك في العينين والأذنين واليدين والرجلين فلم يجعل إحدى اليدين أطول ولا إحدى العينين أوسع ، وهو كقوله (بلى قادرين على أن نسوي بنانه) وتقريره ما عرف في علم التشريح أنه سبحانه ركب جانبي هذه الجثة على التسوي حتى أنه لا تفاوت بين نصفيه لا في العظام ولا في أشكالها ولا في ثقبها ولا في الأوردة والشرايين والأعصاب النافذة فيها والخارجة منها ، واستقصاء القول فيه لا يليق بهذا العلم ، وقال عطاء عن ابن عباس : جعلك قائماً معتدلا حسن الصورة لا كالبهيمة المنحنية ، وقال أبو علي الفارسي عدل خلقك فأخرجك في أحسن التقويم ، وبسبب ذلك الاعتدال جعلك مستعداً لقبول العقل والقدرة والفكر ، وصيرك بسبب ذلك مستولياً على جميع الحيوان والنبات ، وواصلا بالكمال إلى مالم يصل إليه شيء من أجسام هذا العالم .

﴿ البحث الثاني ﴾ قرأ الكوفيون فعدلك بالتخفيف ، وفيه وجوه (أحدها) قال أبو علي الفارسي أن يكون المعنى عدل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت (والثاني) قال الفراء (فعدلك) أي فصرفك إلى أي صورة شاء ، ثم قال ، والتشديد أحسن الوجهين لأنك تقول عدلتك إلى كذا

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾

كما تقول صرفتك إلى كذا ، ولا يحسن عدلتك فيه ولاصرفتك فيه ، ففى القراءة الأولى جعل فى من قوله (فى أى صورة) صلة للتركيب ، وهو حسن ، وفى القراءة الثانية جعله صلة لقوله (فعدلك) وهو ضعيف ، واعلم أن اعتراض القراء إنما يتوجه على هذا الوجه الثانى ، فأما على الوجه الأول الذى ذكره أبو على الفاسى فغير متوجه (والثالث) نقل القفال عن بعضهم أنهما لغتان بمعنى واحد ، أما قوله (فى أى صورة ماشاء ركبك) ففيه مباحث (الأول) ما هل هى مزيدة أم لا ؟ فيه قولان (الأول) أنها ليست مزيدة ، بل هى فى معنى الشرط والجزاء فيكون المعنى فى أى صورة ماشاء أن يركبك فيها ركبك ، وبناء على هذا الوجه ، قال أبو صالح ومقاتل : المعنى إن شاء ركبك فى غير صورة الإنسان من صورة كلب أو صورة حمار أوخنزير أوقرد (والقول الثانى) أنها صلة مؤكدة والمعنى فى أى صورة تقتضيها مشيئته وحكمته من الصور المختلفة ، فإنه سبحانه يركبك على مثلها ، وعلى هذا القول تحتمل الآية وجوهاً (احدها) أن المراد من الصور المختلفة شبه الأب والأم ، أو أقارب الأب أو أقارب الأم ، ويكون المعنى أنه سبحانه يركبك على مثل صور هؤلاء ويدل على صحة هـذا ما روى أنه عليه السلام قال فى هذه الآية « إذا استقرت النطفة فى فى الرحم ، أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم » ، (والثانى) وهو الذى ذكره الفراء والزجاج أن المراد من الصور المختلفة الاختلاف بحسب الطول والقصر والحسن والقبح والذكورة والأنوثة ، ودلالة هذه الحالة على الصانع القادر فى غاية الظهور ، لأن النطفة جسم متشابه الأجزاء وتأثير طبع الأبوين فيه على السوية ، فالفاعل المؤثر بالطبيعة فى القابل المتشابه لا يفعل إلا فعلا واحداً ، فلما اختلفت الآثار والصفات دل ذلك الاختلاف على أن المدبر هو القادر المختار ، قال القفال اختلاف الخلق والألوان كاختلاف الأحوال فى الغنى والفقر والصحة والسقم ، فكما أنا نقطع أنه سبحانه إنما ميز البعض عن البعض فى الغنى والفقر ، وطول العمر وقصره ، بحكمة بالغة لا يحيط بكنهها إلا هو ، فكذلك نعلم أنه إنما جعل البعض مخالفاً للبعض ، فى الخلق والألوان بحكمة بالغة ، وذلك لأن بسبب هـذا الاختلاف يتميز المحسن عن المسىء والقريب عن الأجنبى ، ثم قال ونحن نشهد شهادة لاشك فيها أنه سبحانه لم يفرق بين المناظر والهيئات إلا لما علم من صلاح عباده فيه وإن كنا جاهلين بعين الصلاح (القول الثالث) قال الواسطى المراد صورة المطيعين والعصاة فليس من ركبه على صورة الولاية كمن ركبه على صورة العداوة ، قال آخرون إنه إشارة إلى صفاء الأرواح وظلمتها ، وقال الحسين منهم من صوره ليستخلصه لنفسه ، ومنهم من صوره ليشغله بغيره (مثال الأول) أنه خلق آدم ليخصه بألطاف بره وإعلاء قدره وأظهر روحه من بين جماله وجلاله ، وتوجه بتاج الكرامة وزينه برداء الجلال والهيبة .

قوله تعالى : ﴿ كلا بل تكذبون بالدين ﴾ اعلم أنه سبحانه لما بين بالدلائل العقلية على صحة القول

وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾

بالبعث والنشور على الجملة ، فرع عليها شرح تفاصيل الأحوال المتعلقة بذلك ، وهو أنواع :

﴿ النوع الأول ﴾ أنه سبحانه زجرهم عن ذلك الاغترار بقوله (كلا) و (بل) حرف وضع فى اللغة لنفى شيء قد تقدم وتحقق غيره ، فلا جرم ذكروا فى تفسير (كلا) وجوهاً (الأول) قال القاضى معناه أنكم لا تستقيمون على توجيه نعمى عليكم وإرشادى لكم ، بل تكذبون بيوم الدين (الثانى) كلا أى ارتدعوا عن الاغترار بكرم الله ، ثم كأنه قال وإنكم لا ترتدعون عن ذلك بل تكذبون بالدين أصلا (الثالث) قال القفال كلا أى ليس الأمر كما تقولون من أنه لا بعث ولا نشور ، لأن ذلك يوجب أن الله تعالى خلق الخلق عبثاً وسدى ، وحاشاه من ذلك . ثم كأنه قال وإنكم لا تنتفعون بهذا البيان بل تكذبون ، وفى قوله (تكذبون بالدين) وجهان (الاول) أن يكون المراد من الدين الاسلام ، والمعنى أنكم تكذبون بالجزاء على الدين والإسلام (الثانى) أن يكون المراد من الدين الحساب ، والمعنى أنكم تكذبون بيوم الحساب .

﴿ النوع الثانى ﴾ قوله تعالى ﴿ وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ماتفعلون ﴾ والمعنى التعجب من حالهم ، كأنه سبحانه قال إنكم تكذبون بيوم الدين وهو يوم الحساب والجزاء ، وملائكة الله موكلون بكم يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة ، ونظيره قوله تعالى (عن اليمين وعن الشمال قعيد ، مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) وقوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة) ثم ههنا مباحث :

﴿ الأول ﴾ من الناس من طعن فى حضور الكرام الكاتبين من وجوه : (أحدها) أن هؤلاء الملائكة ، إما أن يكونوا مركبين من الأجسام اللطيفة كالهواء والنسيم والنار ، أو من الأجسام الغليظة ، فإن كان الأول لزم أن تنتقض بنيتهم بأدنى سبب من هبوب الرياح الشديدة وإمرار اليد والكم والسوط فى الهواء ، وإن كان الثانى وجب أن نراهم إذ لو جاز أن يكونوا حاضرين ولا نراهم ، لجاز أن يكون بحضرتنا شموس وأقمار وفيلات وبوقات ، ونحن لا نراها ولا نسمعها وذلك دخول فى التجاهل ، وكذا القول فى إنكار صحائفهم وذواتهم وقلمهم (وثانيها) أن هذا الاستكتاب إن كان خالياً عن الفوائد فهو عبث وذلك غير جائز على الله تعالى ، وإن كان فيه فائدة فتلك الفائدة ، إما أن تكون عائدة إلى الله تعالى أو إلى العبد (والأول) محال لأنه متعال عن النفع والضر ، وبهذا يظهر بطلان قول من يقول إنه تعالى إنما استكتبها خوفاً من النسيان الغلط (والثانى) أيضاً محال ، لأن أقصى ما فى الباب أن يقال فائدة هذا الاستكتاب أن يكونوا شهوداً على الناس وحجة عليهم يوم القيامة إلا أن هذه الفائدة ضعيفة ، لأن الإنسان الذى علم أن الله تعالى لا يجور ولا يظلم ، لا يحتاج فى حقه إلى إثبات هذه الحجة ، والذى لا يعلم ذلك لا ينتفع بهذه الحجة لاحتمال

أنه تعالى أمرهم بأن يكتبوا تلك الأشياء عليه ظلماً (وثالثها) إن أفعال القلوب غير مرئية ولا محسوسة فتكون هي من باب المغيبات، والغيب لا يعلمه إلا الله تعالى على ما قال (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) وإذا لم تكن هذه الأفعال معلومة للملائكة استحال أن يكتبوها والآية تقضى أن يكونوا كاتبين علينا كل ما نفعله، سواء كان ذلك من أفعال القلوب أم لا ؟ (والجواب) عن (الأول) أن هذه الشبهة لا تزال إلا على مذهبنا بناء على أصلين (أحدهما) أن البنية ليست شرطاً للحياة عندنا (والثاني) أى عند سلامة الحاسة وحضور المرئى وحصول سائر الشرائط لا يجب الإدراك، فعلى الأصل الأول يجوز أن تكون الملائكة أجراماً لطيفة تتمزق وتتفرق ولكن تبقى حياتها مع ذلك، وعلى الأصل الثانى يجوز أن يكونوا أجساماً كثيفة لكنا لا نراها (والجواب) عن الثانى أن الله تعالى إنما أجرى أموره مع عباده على مايتعاملون به فيما بينهم لأن ذلك أبلغ فى تقرير المعنى عندهم، ولما كان الأبلغ عندهم فى المحاسبة إخراج كتاب بشهود خوطبوا بمثل هذا فيما يحاسبون به يوم القيامة، فيخرج لهم كتب منشورة، ويحضر هناك ملائكة يشهدون عليهم كما يشهد عدول السلطان على من يعصيه ويخالف أمره، فيقولون له أعطاك الملك كذا وكذا، وفعل بك كذا وكذا، ثم قد خلفته وفعلت كذا وكذا، فكذا ههنا والله أعلم بحقيقة ذلك (الجواب) عن الثالث أن غاية مافى الباب تخصيص هذا العموم بأفعال الجوارح، وذلك غير ممتنع .

﴿ البحث الثانى ﴾ أن قوله تعالى (وإن عليكم لحافظين) وإن كان خطاب مشافهة إلا أن الأمة مجمعة على أن هذا الحكم عام فى حق كل المكلفين، ثم ههنا احتمالان :

﴿ أحدهما ﴾ أن يكون هناك جمع من الحافظين، وذلك الجمع يكونون حافظين لجميع بنى آدم من غير أن يختص واحد من الملائكة بواحد من بنى آدم .

﴿ وثانيهما ﴾ أن يكون الموكل بكل واحد منهم غير الموكل بالآخرة، ثم يحتمل أن يكون الموكل بكل واحد من بنى آدم واحداً من الملائكة لأنه تعالى قابل الجمع بالجمع، وذلك يقتضى مقابلة الفرد بالفرد، ويحتمل أن يكون الموكل بكل واحد منهم جمعاً من الملائكة كما قيل اثنان بالليل، واثنان بالنهار، أو كما قيل إنهم خمسة .

﴿ البحث الثالث ﴾ أنه تعالى وصف هؤلاء الملائكة بصفات (أولها) كونهم حافظين (وثانيها) كونهم كراماً (وثالثها) كونهم كاتبين (ورابعها) كونهم يعلمون ما تفعلون، وفيه وجهان (أحدهما) أنهم يعلمون تلك الأفعال حتى يمكنهم أن يكتبوها، وهذا تنبيه على أن الإنسان لا يجوز له الشهادة إلا بعد العلم (والثانى) أنهم يكتبونها حتى يكونوا عالمين بها عند أداء الشهادة .

واعلم أن وصف الله إياهم بهذه الصفات الخمسة يدل على أنه تعالى أثنى عليهم وعظم شأنهم، وفى تعظيمهم تعظيم لأمر الجزاء، وأنه عند الله تعالى من جلائل الأمور، ولولا ذلك لما وكل

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾

بضبط ما يحاسب عليه ، هؤلاء العظماء الأكابر ، قال أبو عثمان : من يزجره من المعاصى مراقبة الله إياه ، كيف يرده عنها كتابة الكرام الكاتبين .

﴿ النوع الثالث ﴾ من تفاريع مسألة الحشر قوله تعالى ﴿ إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم ، يصلونها يوم الدين ، وهم عنهم بغائبين ﴾

اعلم أن الله تعالى لما وصف الكرام الكاتبين لأعمال العباد ذكر أحوال العاملين فقال (إن الأبرار لفى نعيم) وهو نعيم الجنة (وإن الفجار لفى جحيم) وهو النار ، وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن القاطعين بوعيد أصحاب الكبائر تمسكوا بهذه الآية ، فقالوا صاحب الكبيرة فاجر ؛ والفجار كلهم فى الجحيم ، لأن لفظ الجحيم إذا دخل عليه الألف واللام أفاد الاستغراق والكلام فى هذه المسألة قد استقصيناه فى سورة البقرة . وههنا نكت زائدة لا بد من ذكرها : قالت الوعيدية حصلت فى هذه الآية وجوه دالة على دوام الوعيد (أحدها) قوله تعالى (يصلونها يوم الدين) ويوم الدين يوم الجزاء ولا وقت إلا ويدخل فيه ، كما نقول يوم الدنيا ويوم الآخرة (الثانى) قال الجبائى لو خصصنا قوله (وإن الفجار لفى جحيم) لكان بعض الفجار يصيرون إلى الجنة ولو صاروا إليها لكانوا من الأبرار وهذا يقتضى أن لا يتميز الفجار عن الأبرار ، وذلك باطل لأن الله تعالى ميز بين الأمرين ، فاذن يجب أن لا يدخل الفجار الجنة كما لا يدخل الأبرار النار (والثالث) أنه تعالى قال (وما هم عنها بغائبين) وهو كقوله (وما هم بخارجين منها) وإذا لم يكن هناك موت ولا غيبة فليس بعدهما إلا الخلود فى النار أبد الآبدين ، ولما كان اسم الفاجر يتناول الكافر والمسلم صاحب الكبيرة ثبت بقاء أصحاب الكبائر أبداً فى النار ، وثبت أن الشفاعة للمطيعين لا لأهل الكبائر (والجواب عنه) أنا بينا أن دلالة ألفاظ العموم على الاستغراق دلالة ظنية ضعيفة والمسألة قطعية . والتمسك بالدليل الظنى فى المطلوب القطعى غير جائز ، بل ههنا ما يدل على قولنا ، لأن استعمال الجمع المعرف بالألف واللام فى المعهود السابق شائع فى اللغة ، فيحتمل أن يكون اللفظ ههنا عائداً إلى الكافرين الذين تقدم ذكرهم من المكذبين بيوم الدين ، والكلام فى ذلك قد تقدم على سبيل الاستقصاء . سلمنا أن العموم يفيد القطع ، لكن لا نسلم أن صاحب الكبيرة فاجر ، والدليل عليه قوله تعالى فى حق الكفار (أولئك هم الكفرة الفجرة) فلا يخلو إما أن يكون المراد (أولئك هم الكفرة) الذين يكونون من جنس الفجرة أو المراد (أولئك هم الكفرة) وهم (الفجرة) (والأول) باطل لأن كل كافر فهو فاجر بالإجماع ، فتقييد الكافر بالكافر

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

الذى يكون من جنس الفجرة عبث ، وإذا بطل هـذا القسم بقى الثانى ، وذلك يفيد الحصر ، وإذا دلت هذه الآية على أن الكفار هم الفجرة لا غيرهم ، ثبت أن صاحب الكبيرة ليس بفاجر على الإطلاق ، سلمنا إن الفجار يدخل تحته الكافر والمسلم ، لكن قوله (وما هم عنها بغائبين) معناه أن مجموع الفجار لا يكونون غائبين ، ونحن نقول بموجبه ، فإن أحد نوعى الفجار وهم الكفار لا يغيبون ، وإذا كان كذلك ثبت أن صدق قولنا إن الفجار بأسرهم لا يغيبون ، يكفى فيه أن لا يغيب الكفار ، فلا حاجة فى صدقه إلى أن لا يغيب المسلمون ، سلمنا ذلك لكن قوله (وماهم عنها بغائبين) يقتضى كونهم فى الحال فى الجحيم وذلك كذب . فلابد من صرفه عن الظاهر ، فهم يحملونه على أنهم بعد الدخول فى الجحيم يصدق عليهم قوله (وما هم عنها بغائبين) ونحن نحمل ذلك على أنهم فى الحال ليسوا غائبين عن استحقاق الكون فى الجحيم ، إلا أن ثبوت الاستحقاق لا ينافى العفو ، سلمنا ذلك لكنه معارض بالدلائل الدالة على العفو وعلى ثبوت الشفاعة لأهل الكبائر ، والترجيح لهذا الجانب ، لأن دليلهم لابد وأن يتناول جميع الفجار فى جميع الأوقات ، وإلا لم يحصل مقصودهم ، ودليلنا يكفى فى صحته تناوله لبعض الفجار فى بعض الأوقات ، فدليلهم لابد وأن يكون عاماً ، ودليلنا لابد وأن يكون خاصاً والخاص ، مقدم على العام ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فيه تهديد عظيم للعصاة حكى أن سليمان بن عبد الملك مر بالمدينة وهو يريد مكة ، فقال لأبى حازم كيف القدوم على الله غدا ؟ قال أما المحسن فكالغائب يقدم من سفره على أهله ، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه ، قال فبكى ، ثم قال : ليت شعرى ما لنا عند الله ! فقال أبو حازم اعرض عملك على كتاب الله ، قال فى أى مكان من كتاب الله ؟ قال (إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم) وقال جعفر الصادق عليه السلام النعيم المعرفة والمشاهدة ، والجحيم ظلمات الشهوات ، وقال بعضهم . النعيم القناعة ، والجحيم الطمع ، وقيل : النعيم التوكل ، والجحيم الحرص ، وقيل : النعيم الاشتغال بالله ، والجحيم الاشتغال بغير الله تعالى .

﴿النوع الرابع ﴾ من تفاريع الحشر تعظيم يوم القيامة ، وهو قوله تعالى ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ، ثم ما أدرك ما يوم الدين ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفوا فى الخطاب فى قوله (وما أدراك) فقال بعضهم هو خطاب للكافر على وجه الزجر له ، وقال الأكثرون : إنه خطاب للرسول ، وإنما خاطبه بذلك لأنه ما كان عالماً بذلك قبل الوحى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الجمهور على أن التكرير فى قوله (وما أدراك مايوم الدين ، ثم ما أدريك مايوم الدين) لتعظيم ذلك اليوم ، وقال الجبائى : بل هو لفائدة مجددة ، إذ المراد بالأول أهل النار ، والمراد بالثانى أهل الجنة ،كأنه قال : وما أدراك ما يعامل به الفجار فى يوم الدين ؟ ثم ما أدراك مايعامل به الأبرار فى يوم الدين ؟ وكرر يوم الدين تعظيما لما يفعله تعالى من الأمرين بهذين الفريقين

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (يوم لاتملك) قراءتان الرفع والنصب ، أما الرفع ففيه وجهان (أحدهما) على البدل من يوم الدين (والثانى) أن يكون بإضمار هو فيكون المعنى هو يوم لاتملك ، وأما النصب ففيه وجوه (أحدها) بإضمار يدانون لأن الدين يدل عليه (وثانيها) بإضمار اذكروا (وثالثها) ما ذكره الزجاج يجوز أن يكون فى موضع رفع إلا أنه يبنى على الفتح لإضافته إلى قوله (لاتملك) وما أضيف إلى غير المتمكن قد يبنى على الفتح ، وإن كان فى موضع رفع أو جر كما قال :

لم يمنع الشرب منهم غير أن نطقت حمامة فى غصون ذات أو قال

فبنى غير على الفتح لما أضيف إلى قوله إن نطقت ، قال الواحدى : والذى ذكره الزجاج من البناء على الفتح إنما يجوز عند الخليل وسيبويه ، إذا كانت الإضافة إلى الفعل الماضى ، نحو قولك على حين عاتبت ، أما مع الفعل المستقبل ، فلا يجوز البناء عندهم ، ويجوز ذلك فى قول الكوفيين ، وقد ذكرنا هذه المسألة عند قوله (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) (ورابعها) ماذكره أبو على وهو أن اليوم لما جرى فى أكثر الأمر ظرفاً ترك على حالة الأكثرية ، والدليل عليه اجماع القراء والعرب فى قوله (منهم الصالحون ومنهم دون ذلك) ولا يرفع ذلك أحد . ومما يقوى النصب قوله (وما أدراك ماالقارعة ، يوم يكون الناس) وقوله (يسألون أيان يوم الدين ، يوم هم على النار يفتنون) فالنصب فى (يوم لا تملك) مثل هذا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ تمسكوا فى نفى الشفاعة للعصاة بقوله (يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً) وهو كقوله تعالى (واتقوا يوماً لاتجزى نفس عن نفس شيئاً) (والجواب) عنه قد تقدم فى سورة البقرة .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ أن أهل الدنيا كانوا يتغلبون على الملك ويعين بعضهم بعضاً فى أمور ، ويحمى بعضهم بعضاً ، فإذا كان يوم القيامة بطل ملك بنى الدنيا وزالت رياستهم ، فلا يحمى أحد أحداً ، ولا يغنى أحد عن أحد ، ولا يتغلب أحد على ملك ، ونظيره قوله (والأمر يومئذ لله) وقوله (مالك يوم الدين) وهو وعيد عظيم من حيث إنه عرفهم أنه لا يغنى عنهم إلا البر والطاعة يومئذ ، دون سائر ماكان قد يغنى عنهم فى الدنيا من مال وولد وأعوان وشفعاء . قال الواحدى : والمعنى أن الله تعالى لم يملك فى ذلك اليوم أحداً شيئاً من الأمور ، كما ملكهم فى دار الدنيا . قال الواسطى فى قوله (يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً) إشارة إلى فناء غير الله تعالى ، وهناك تذهب الرسالات والكلمات والغايات ، فمن كانت صفته فى الدنيا كذلك كانت دنياه أخراه .

وأما قوله (والأمر يومئذ لله) فهو إشارة إلى أن البقاء والوجود لله ، والأمر كذلك فى الازل وفى اليوم وفى الآخرة ، ولم يتغير من حال إلى حال ، فالتفاوت عائد إلى أحوال الناظر ، لا إلى أحوال المنظور إليه ، فالكاملون لاتتفاوت أحوالهم بحسب تفاوت الأوقات ، كما قال : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا ، وكحارثة لما أخبر بحضرة النبى ﷺ يقول « كأنى أنظر وكأنى وكأنى » والله سبحانه وتعالى أعلم ، والحمد لله رب العالمين

٨٢ـ سورة الانفطار

(مكية وهي تسعة عشرة آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ ٨٢ الانفطار

وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ ٨٢ الانفطار

وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ ٨٢ الانفطار

وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ ٨٢ الانفطار

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ٨٢ الانفطار

﴿ سورة الانفطار مكية وآياتها تسعة عشر ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (إذا السماء انفطرت) أي انشقت لنزول الملائكة كقوله تعالى ويوم
تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا وقوله تعالى وفتحت السماء فكانت أبواباً والكلام في ارتفاع
٣،٢ السماء كما مر في ارتفاع الشمس (وإذا الكواكب انتثرت) أي تساقطت متفرقة (وإذا البحار فجرت)
فتح بعضها إلى بعض فاختلط العذب بالأجاج وزال ما بينهما من البرزخ الحاجز وصارت البحار بحراً
واحداً وروي أن الأرض تنشف الماء بعد امتلاء البحار فتصير مستوية وهو معنى التسجير عند الحسن
رضي الله عنه وقيل إن مياه البحار الآن راكدة مجتمعة فإذا فجرت تفرقت وذهبت وقرىء فجرت
٤ بالتخفيف مبنياً للمفعول ومبنياً للفاعل أيضاً بمعنى بغت من الفجور نظراً إلى قوله تعالى لا يبغيان (وإذا
القبور بعثرت) أي قلب ترابها وأخرج موتاها ونظيره بحثر لفظاً ومعنى وهما مركبان من البعث والبحث
٥ مع راء ضمت إليهما وقوله تعالى (علمت نفس ما قدمت وأخرت) جواب إذا لكن لا على أنها تعلمه
عند البعث بل عند نشر الصحف لما عرفت من أن المراد بها زمان واحد مبدؤه النفخة الأولى ومنتهاه
الفصل بين الخلائق لا أزمنة متعددة حسب تعدد كلمة إذا وإنما كررت لتهويل ما في حيزها من الدواهي
والكلام فيه كالذي مر في تفصيله في نظيره ومعنى ما قدم وأخر ما أسلف من عمل خير أو شر وأخر من
سنة حسنة أو سيئة يعمل بها بعده قاله ابن عباس وابن مسعود وعن ابن عباس أيضاً ما قدم من معصية
وأخر من طاعة وهو قول قتادة وقيل ما قدم من أمواله لنفسه وما أخر لورثته وقيل ما قدم من فرض
وأخر من فرض وقيل أول عمله وآخره ومعنى علمها التفصيلي حسبما ذكر فيما مر مراراً .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٨٢ الانفطار

ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ ٨٢ الانفطار

فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ٨٢ الانفطار

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ ٨٢ الانفطار

وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ ٨٢ الانفطار

٦ (يأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم) أى اى شيء خدعك وجرأك على عصيانه وقد علمت ما بين
يديك من الدواهى التامة والعراقيل الطامة وما سيكون حينئذ من مشاهدة أعمالك كلها والتعرض
لعنوان كرمه تعالى للإيذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مداراً لاغتراره حسبما يغويه الشيطان ويقول
له افعل ماشئت فإن ربك كريم قد تفضل عليك فى الدنيا وسيفعل مثله فى الآخرة فإنه قياس عقيم وتمنية
باطلة بل هو مما يوجب المبالغة فى الإقبال على الإيمان والطاعة والاجتناب عن الكفر والعصيان كأنه
٧ قيل ماحملك على عصيان ربك الموصوف بالصفات الزاجرة عنه الداعية إلى خلافه وقوله تعالى (الذى
خلقك فسواك فعدلك) صفة ثانية مقررة للربوبية مبينة للكرم منبهة على أن من قدر على ذلك بدءاً
قدر عليه إعادة والتسوية جعل الأعضاء سليمة سوية معدة لمنافعها وعدلها عدل بعضها ببعض بحيث
اعتدلت ولم تتفاوت أو صرفها عن خلقة غير ملائمة لها وقرىء فعدلك بالتشديد أى صيرك متعدلا
٨ متناسب الخلق من غير تفاوت فيه (فى أى صورة ماشاء ركبك) أى ركبك فى أى صورة شاءها من
الصور المختلفة وما مزيدة وشاء صفة لصورة أى ركبك فى أى صورة شاءها واختارها لك من الصور
العجيبة الحسنة كقوله تعالى لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم وإنما لم يعطف الجملة على ماقبلها لأنها
٩ بيان لعدلك (كلا) ردع عن الاغترار بكرم الله تعالى وجعله ذريعة إلى الكفر والمعاصى مع كونه
* موجبا للشكر والطاعة وقوله تعالى (بل تكذبون بالدين) إضراب عن جملة مقدرة ينساق إليها الكلام
كأنه قيل بعد الردع بطريق الاعتراض وأنتم لاترتدعون عن ذلك بل تجترئون على أعظم من ذلك
حيث تكذبون بالجزاء والبعث رأساً أو بدين الإسلام الذى هما من جملة أحكامه فلا تصدقون سؤالا
ولا جواباً ولا ثواباً ولا عقاباً وقيل كأنه قيل إنكم لاتستقيمون على ماتوجبه نعمى عليكم وإرشادى
لكم بل تكذبون الخ وقال القفال ليس الأمر كما تقولون من أنه لابعث ولا نشور ثم قيل أنتم لاتتبينون
١٠ بهذا البيان بل تكذبون بيوم الدين وقوله تعالى (وإن عليكم لحافظين) حال من فاعل تكذبون مفيدة
لبطلان تكذيبهم وتحقق مايكذبون به أى تكذبون بالجزاء والحال أن عليكم من قبلنا لحافظين لأعمالكم .

كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ ٨٢ الانفطار

يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ٨٢ الانفطار

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ ٨٢ الانفطار

وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ٨٢ الانفطار

يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ ٨٢ الانفطار

وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ ٨٢ الانفطار

وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ٨٢ الانفطار

ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ ٨٢ الانفطار

١١، ١٢ (كراماً) لدنيا (كاتبين) لها (يعلمون ماتفعلون) من الأفعال قليلا وكثيراً ويضبطونه نقيراً
وقطميراً لتجازوا بذلك وفى تعظيم الكاتبين بالثناء عليهم تفخيم لأمر الجزاء وأنه عند الله عز وجل
١٣، ١٤ من جلائل الأمور حيث يستعمل فيه هؤلاء الكرام وقوله تعالى (إن الأبرار لفى نعيم) (وإن
الفجار لفى جحيم) استئناف مسوق لبيان نتيجة الحفظ والكتاب من الثواب والعقاب وفى تنكير
١٥ النعيم والجحيم من التفخيم والتهويل مالا يخفى وقوله تعالى (يصلونها) إما صفة لجحيم أو استئناف
* مبنى على سؤال نشأ من تهويلها كأنه قيل ماحالهم فيها فقيل يقاسون حرها (يوم الدين) يوم الجزاء
١٦ الذى كانوا يكذبون به (وما هم عنها بغائبين) طرفة عين فإن المراد دوام نفى الغيبة لانفى دوام الغيبة
لما مر مراراً من أن الجملة الاسمية المنفية قد يراد بها استمرار النفى لانفى الاستمرار باعتبار ماتفيده
من الدوام والثبات بعد النفى لاقبله وقيل معناه وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية بل كانوا يجدون
سمومها فى قبورهم حسبما قال النبى صلى الله عليه وسلم القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر
١٧، ١٨ النيران وقوله تعالى (وما أدراك مايوم الدين) (ثم ماأدراك مايوم الدين) تفخيم لشأن يوم الدين
الذى يكذبون به إثر تفخيم وتهويل لأمره بعد تهويل ببيان أنه خارج عن دائرة دراية الخلق على أى
صورة تصوره فهو فوقها وكيفما تخيلوه فهو أطم من ذلك وأعظم أى وأى شىء جعلك داريا مايوم
الدين على أن ما الاستفهامية خبر ليوم الدين إلا بالعكس كما هو رأى سيبويه لما مر من أن مدار
الإفادة هو الخبر لا المبتدأ ولا ريب فى أن مناط إفادة الهول والفخامة هناهو مالايوم الدين أى أى
شىء عجيب هو فى الهول والفظاعة لما مر غير مرة أن كلمة ماقد يطلب بها الوصف وإن كانت موضوعة

يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ٨٢ الانفطار

لطلب الحقيقة وشرح الاسم يقال مازيد فيقال فى الجواب كاتب أو طبيب وفى إظهار يوم الدين فى
موقع الإضمار تأكيد لهوله وفخامته وقوله تعالى (يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله) ١٩
بيان إجمالى لشأن يوم الدين إثر إبهامه وبيان خروجه عن علوم الخلق بطريق إنجاز الوعد فإن نفى
إدرائهم مشعر بالوعد الكريم بالإدراء قال ابن عباس رضى الله عنهما كل مافى القرآن من قوله تعالى
ما أدراك فقد أدراه وكل مافيه من قوله وما يدريك فقد طوى عنه ويوم مرفوع على أنه خبر مبتدأ
محذوف وحركته الفتح لإضافته إلى غير متمكن كأنه قيل هو يوم لايملك فيه نفس من النفوس
لنفس من النفوس شيئاً من الأشياء الخ أو منصوب بإضمار اذكر كأنه قيل بعد تفخيم أمر يوم الدين
وتشويقه عليه الصلاة والسلام إلى معرفته اذكر يوم لاتملك نفس الخ فإنه يدريك ما هو وقيل بإضمار
يدانون وليس بذاك فإنه عار عن إفادة ما يفيده ماقبله كما أن إبداله من يوم الدين على قراءة الرفع كذلك
بل الحق حينئذ الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة
الانفطار كتب الله تعالى له بعدد كل قطرة من السماء وبعدد كل قبر حسنة والله تعالى أعلم .

سورة الانفطار

وتسمى سورة انفطرت وسورة المنفطرة ولا خلاف في أنهـا مكية ولا في أنها تسع عشرة آية ومناسبتها لمـا قبلها معلومة

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * إذا السَّماءُ انْفَطَرَتْ﴾ أي انشقت لنزول الملائكة كقوله تعالى يوم

تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا والكلام في ارتفاع السماء كما مر في ارتفاع الشمس ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ أى تساقطت متفرقة وهو استعارة لازالتها حيث شبهت بجواهر قطع سلكها وهي مصرحة أو مكنية ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ فتحت وشققت جوانبها فزال ما بينها من البرزخ واختلط العذب بالاجاج وصارت بحرا واحدا وروى أن الارض تنشف الماء بعد امتلاء البحار فتصير مستوية أى في أن لاماء وأريد أن البحار تصير واحدة أولا ثم تنشف الارض جميعا فتصير بلا ماء ويحتمل أن يراد بالاستواء بعد النضوب عدم بقاء مغايض الماء لقوله تعالى لاترى فيها عوجا ولا أمتا وقرأ مجاهد والربيع بن خيثم والزعفرانى والثورى فجرت بالتخفيف مبنيا للمفعول وعن مجاهد أيضا فجرت به مبنيا للفاعل بمعنى نبعت لزوال البرزخ من الفجور نظر الى قوله تعالى لايبغيان لان البغى والفجور اخوان ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ قلب ترابها الذى حثى على موتاها وأزيل وأخرج من دفن فيها على مافسر به غير واحد وأصل البعثرة على ماقيل تبديد التراب ونحوه وهو انما يكون لاخراج شيء تحته فقد يذكر ويراد معناه ولازمه معا وعليه ماسمعت وقد يتجوز به عن البعث والاخراج كما في العاديات حيث اسند فيها لما في القبور دونها كما هنا وزعم بعض أنه مشترك بين النبش والاخراج وذهب بعض الائمة كالزمخشرى والسهيلى الى أنه مركب من كلمتين اختصارا ويسمى ذلك نحتا وأصل بعثر بعث وأثير ونظيره بسمل وحمدل وحوقل ودمعز أى قال بسم الله والحمد لله تعالى ولاحول ولاقوة الا بالله تعالى وادام الله تعالى عزه الى غير ذلك من النظائر وهي كثيرة في لغة العرب وعليه يكون معناه النبش والاخراج معا واعترضه أبو حيان بان الراء ليست من أحرف الزيادة وهو توهم منه فانه فرق بين التركيب والنحت من كلمتين والزيادة على بعض الحروف الاصول من كلمة واحدة كما فصل في الزهر نقلا عن أئمة اللغة نعم الاصل عدم التركيب ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ جواب اذا لكن لاعلى أنها تعلمه عند البعث بل عند نشر الصحف لما عرفت أن المراد بها زمان واحد مبدؤه قبيل النفخة الاولى أوهي ومنتهاه الفصل بين الخلائق لاأزمنة متعددة بحسب كلمة اذا وانما كررت لتهويل ما في حيزها من الدواهي والكلام فيه كالذى مر في نظيره ومعنى ماقدم وأخر ما أسلف من عمل خير او شر وأخر من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها بعده قاله ابن عباس وابن مسعود وعن ابن عباس أيضا ماقدم معصية وأخر من طاعة وهو قول قتادة وقيل ماعمل ماكلف به ومالم يعمل منه وقيل ماقدم من أمواله لنفسه وما أخر لورثته وقيل أول عمله وآخره ومعنى علمها بهما علمها التفصيلي حسبما ذكر فيما قدم ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ أى أى شيء خدعك وجرأك على عصيانه تعالى وارتكاب ما لا يليق بشأنه عز شأنه وقد علمت ما بين يديك وما سيظهر من أعمالك عليك والتعرض لعنوان كرمه تعالى دون قهره سبحانه من صفات الجلال المانعة ملاحظتها عن الاغترار للايذان بانه ليس مما يصلح ان يكون مدارا لاغتراره حسبما يغويه الشيطان ويقول له افعل ما شئت فان ربك كريم قد تفضل عليك في الدنيا وسيفعل مثله في الآخرة أو يقول له نحو ذلك مما مبناه الكرم كقول بعض شياطين الانس

تكثر ما استطعت من الخطايا * ستلقى في غد ربا غفورا

تعض ندامة كفيك مما * تركت مخافة الذنب السرورا

فانه قياس عقيم وتمنية باطلة بل هو مما يوجب المبالغة في الاقبال على الايمان والطاعة والاجتناب عن الكفر والعصيان دون العكس ولذا قال بعض العارفين لو لم أخف الله تعالى لم أعصه فكأنه قيل ماحملك على عصيان ربك

الموصوف بما يزجرعنه وتدعوالى خلافه وقيل ان هذا تلقين للحجة وهو من الكرم أيضا فانه اذا قيل له ماغرك الخ يتفطن للجواب الذى لقنه ويقول كرمه كما قيل يعرف حسن الخلق والاحسان بقلة الآداب في الغلمان ولم يرتض ذلك الزمخشرى وكان الاغترار بذلك في النظر الجليل والا فهو في النظر الدقيق كما سمعت وعن الفضيل انه قال غره ستره تعالى المرخي وقال محمد بن السماك

يا كاتم الذنب أما تستحى * والله في الخلوة رائيكا

غرك من ربك امهاله * وستره طول مساويكا

وقال بعضهم
يقول مولاى اما تستحى * مما أرى من سوء افعالك

فقلت يا مولاى رفقا فقد * جرأنى كثرة أفضالك

وقال قتادة غره عدوه المسلط عليه وروى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قرأ الآية فقال الجهل وقاله عمر رضى الله تعالى عنه وقرأ انه كان ظلوما جهولا والفرق بين هذا وبين ما ذكروا لا يخفى على ذى علم واختلف في الانسان المنادى فقيل الكافر بل عن عكرمة انه ابى بن خلف وقيل الاعم الشامل للعصاة وهو الوجه لعموم اللفظ ولوقوعه بين المجمل ومفصله أعنى علمت نفس وان الابرار وان الفجار وأما قوله تعالى بل يكذبون بالدين ففى الكشف اما أن يكون ترشيحا لقوة اغترارهم بايهام انهم أسوأ حالا من المكذبين تغليظا واما لصحة خطاب الكل بما وجد فيما بينهم وقرأ ابن جبير والاعمش ما أغرك بهمزة فاحتمل ان يكون تعجبا وان تكون ما استفهامية كما في قراءة الجمهور وأغرك بمعنى ادخلك في الغرة وقوله سبحانه ﴿ الذى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ صفة ثانية مقررة للربوبية مبينة للكرم مومية الى صحة ما كذب من البعث والجزاء موطئة لما بعد حيث نبهت على ان من قدر على ذلك بدأ أقدر عليه اعادة والتسوية جعل الاعضاء سوية سليمة معدة لمنافعها وهي فى الاصل جعل الاشياء على سواء فتكون على وفق الحكمة ومقتضاها باعطائها ماتتم به وعدلها عدل بعضها ببعض بحيث اعتدلت من عدل فلانا بفلان اذا ساوى بينهما أو صرفها عن خلقة غير ملائمة لها من عدل بمعنى صرف وذهب الى الاول الفارسى والى الثانى الفراء وقرأ غير واحد من السبعة عدلك بالتشديد أى صيرك معتدلا متناسب الخلق من غير تفاوت فيه ونقل القفال عن بعضهم ان عدل وعدل بمعنى واحد ﴿ في أيِّ صُورَةٍ ماشَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ أى ركبك ووضعك في أى صورة اقتضتها مشيئته تعالى وحكمته جل وعلا من الصور المختلفة في الطول والقصر ومراتب الحسن ونحوها فالجار والمجرور متعلق بركبك وأى للصفة مثلها في قوله

أرأيت أى سوالف وخدود * برزت لنا بين اللوى وزرود

ولما أريد التعميم لم يذكر موصوفها وجملة شاء صفة لها والعائد محذوف وما مزيدة وانما لم تعطف الجملة على ماقبلها لانها بيان لعدلك وجوز ان يكون الجار والمجرور في موضع الحال اى ركبك كائنا في اى في صورة شاءها وقيل أى موصولة صلتها جملة شاءها كانه قيل ركبك في الصورة التى شاءها وفيه انه صرح أبو على في التذكرة بان ايا الموصولة لاتضاف الى نكرة وقال ابن مالك في الالفية واخصص بالمعرفة موصولة ايا * وفي شرحها للسيوطى مع اشتراط ماسبق يعنى كون المعرفة غير مفردة فلاتضفها الى نكرة خلافا لابن عصفور ويجوز أن تجعل أى شرطية والماضى في جوابها في معنى المستقبل اذا نظر الى تعلق المشيئة وترتب التركيب عليه فجىء بصورة الى الماضى نظرا الى المشيئة واداة الشرط نظرا الى التعلق والترتب ويجوز أن يكون الجار متعلقا بعدلك وحينئذ يتعين في أى الصفة كانه قيل فعدلك في صورة أى صورة أى في صورة عجيبة ثم حذف الموصوف زيادة للتفخيم والتعجيب وأى هذه منقولة من الاستفهامية لكنها

لانسلاخ معناها عنها بالكلية عمل فيها ما قبلها ويكون ما شاء ركبك كلاما مستأنفاوما أما موصولة أو موصوفة مبتدأ او مفعولا مطلقا لركبك أى ما شاء من التركيب ركبك فيه أو تركيبا شاءركبك وجوز أن تكون شرطية وشاء فعل الشرط وركبك جزاؤه أى ان شاء تركيبك في أى صورة غير هذه الصورة ركبك فيها والجملة الشرطية في موضع الصفة لصورة والعائد محذوف ولم يجوزوا على هذا الوجه تعلق الظرف بركبك لان معمول مافي حيز الشرط لايجوز تقديمه عليه ﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن الاغترار بكرم الله تعالى وجعله ذريعة الى الكفر والمعاصي مع كونه موجبا للشكر والطاعة وقوله تعالى ﴿ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ اضراب عن جملة مقدرة ينساق اليها الكلام كانه قيل بعد الردع بطريق الاعتراض وأنتم لاترتدعون عن ذلك بل تجترؤن على أعظم منه حيث تكذبون بالجزاء والبعث رأسا أوبدين الاسلام اللذين هما من جملة أحكامه فلا تصدقون سؤالا ولا جوابا ولا ثوابا ولا عقابا وفيه ترق من الاهون الى الاغلظ وعن الراغب بل هنا لتصحيح الثانى وابطال الاول كأنه قيل ليس هنا مقتض لغرورهم ولكن تكذيبهم حملهم على ماارتكبوه وقيل تقدير الكلام انكم لا تستقيمون على ما توجبه نعمى عليكم وارشادى لكم بل تكذبون الخ وقيل ان كلا ردع عما دل عليه هذه الجملة من نفيهم البعث وبل اضراب عن مقدر كانه قيل ليس الامر كما تزعمون من نفى البعث والنشور ثم قيل لا تتبينون بهذا البيان بل تكذبون الخ وأدغم خارجة عن نافع ركبك كلا كابى عمرو في ادغامه الكبير وقرأ الحسن وأبو جعفر وشيبة وأبو بشر يكذبون بياء الغيبة وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ حال من فاعل تكذبون مفيدة لبطلان تكذيبهم وتحقيق مايكذبون به من الجزاء على لوجهين في الدين أى تكذبون بالجزاء والحال ان عليكم من قبلنا لحافظين لاعمالكم ﴿ كِرَامًا ﴾ لدينا ﴿ كَاتِبِينَ ﴾ لها ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ من الافعال قليلا كان أو كثيرا ويضبطونه نقيرا أو قطميرا وليس ذلك للجزاء واقامة الحجة والالكان عبثا ينزه عنه الحكيم العليم وقيل جيء بهذه الحال استبعادا للتكذيب معها وليس بذاك وفى تعظيم الكاتبين بالثناء عليهم تفخيم لامر الجزاء وانه عندالله عز وجل من جلائل الامور حيث استعمل سبحانه فيه هؤلاء الكرام لديه تعالى ثم ان هؤلاء الحافظين غير المعقبات في قوله تعالى له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله فمع الانسان عدة ملائكة روى عن عثمان انه سأل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كم من ملك على الانسان فذكر عليه الصلاة والسلام عشرين ملكا قال المهدوى في الفيصل وقيل ان كل آدمى يوكل به من حين وقوعه نطفة في الرحم الى موته أربعمائة ملك ومن يكتب الاعمال ملكان كاتب الحسنات وهو في المشهور على العاتق الايمن وكاتب ماسواها وهو على العاتق الايسر والاول أمين على الثانى فلا يمكنه من كتابة السيئة الابعد مضى ست ساعات من غير مكفر لها ويكتبان كل شيء حتى الاعتقاد والعزم والتقرير وحتى الانين في المرض وكذا يكتبان حسنات الصبى على الصحيح ويفارقان المكلف عند الجماع ولايدخلان مع العبد الخلاء وأخرج البزار عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان الله تعالى ينهاكم عن التعرى فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين الذين لايفارقونكم إلا عند احدى ثلاث حاجات الغائط والجنابة والغسل ولايمنع ذلك من كتبهما ما يصدر عنه و يجعل الله تعالى لهما أمارة على الاعتقاد القلبي ونحوه ويلزمان العبد الى مماته فيقومان على قبره يسبحان ويهللان ويكبران ويكتب ثوابه للميت الى يوم القيامة ان كان مؤمنا ويلعنانه الى يوم القيامة ان كان كافرا واستظهر بعضهم انهما اثنان بالشخص وقيل بالنوع وقيل كاتب الحسنات يتغير دون كاتب السيئات ونصوا على ان المجنون

لا حفظة عليه وورد في بعض الآثار ما يدل على ان بعض الحسنات ما يكتبها غير هذين الملكين والظواهر تدل على ان الكتب حقيقي وعلم الآلة وما يكتب فيه مفوض الى الله عز وجل وقوله سبحانه ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ استئناف مسوق لبيان نتيجة الحفظ والكتب من الثواب والعقاب وفي تنكير النعيم والجحيم ما لا يخفى من التفخيم والتهويل وقوله تعالى ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ اما صفة للجحيم أو حال من ضمير الفجار في الخبر أو استئناف مبني على سؤال نشأ من تهويلها كانه قيل ما حالهم فيها فقيل يقاسون حرها وقرأ ابن مقسم يصلونها مشددا مبنيا للمفعول ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به استقلالا أو في ضمن تكذيبهم بالاسلام ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ طرفة عين فان المراد استمرار النفي لا نفي الاستمرار وهو كقوله تعالى وماهم بخارجين منها في الدلالة على سرمدية العذاب وانهم لا يزالون محسين بالنار وقيل معناه وماكانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية بل كانوا يجدون سمومها في قبورهم حسبما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار على ان غائبين من حكاية الحال الماضية والجملة قيل على الوجهين في موضع الحال لكنها على الاول حال مقدرة وعلى الثاني من باب جاؤكم حصرت صدورهم وقيل انها على الاول حالية دون الثاني لانفصال مابين صلى النار وعذاب القبر بالبعث ومافي موقف الحساب بل هي عليه معطوفة على ماقبلها ويحتمل اسم الفاعل فيها أعني غائبين على الحال أي وماهم عنها بغائبين الآن لتغاير المعطوف عليه الذي أريد به الاستقبال والكلام على ماعرف في اخباره تعالى من التعبير عن المستقبل بغيره لتحققه فلا يرد ان بعض الفجار في زمرة الاحياء بعد وبعضهم لم يخلق كذلك وعذاب القبر بعد الموت فكيف يحمل غائبين على الحال وقوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ تفخيم لشأن يوم الدين الذي يكذبون به أثر تفخيم وتعجيب منه بعد تعجيب والخطاب فيه عام والمراد أن كنه أمره بحيث يدر كه دراية داري وقيل الخطاب لسيد المخاطبين صلى الله تعالى عليه وسلم وقيل للكافر والاظهار في موضع الاضمار تأكيد لهول يوم الدين وفخامته وقد تقدم الكلام في تحقيق كون الاستفهام في مثل ذلك مبتدا أو خبرا مقدما فلا تغفل وقوله سبحانه ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ بيان اجمالي لشأن يوم الدين اثر ابهامه وافادة خروجه عن الدائرة الدراية قيل بطريق انجاز الوعد فان نفي الادراء مشعر بالوعد الكريم بالادراء على ما روى عن ابن عباس من أنه قال كل ما في القرآن من قوله تعالى ما أدراك فقد أدراه وكل ما فيه من قوله عز وجل ما يدريك فقد طوى عنه ويوم منصوب باضمار اذكر كانه قيل بعد تفخيم أمر يوم الدين وتشويقه صلى الله تعالى عليه وسلم الى معرفته اذكر يوم لا تملك نفس من النفوس لنفس من النفوس مطلقا لا للكافرة فقط كما روى عن مقاتل شيئاً من الاشياء الخ فانه يدريك ماهو أو مبني على الفتح محله الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف على رأي من يرى جواز بناء الظرف اذا أضيف الى غير متمكن وهم الكوفيون أي هو يوم لا تملك الخ وقيل هو نصب على الظرفية باضمار يدانون أو يشتد الهول أو نحوه مما يدل عليه السياق أو هو مبني على الفتح محله الرفع على أنه بدل من يوم الدين وكلاهما ليسا بذاك لخلوهما عن افادة ما أفاده ما قبل وقرأ ابن أبي اسحق وعيسى وابن جندب وابن كثير وأبو عمرو يوم بالرفع بلا تنوين على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو يوم لا بدل لما سمعت آنفا وقرأ محبوب عن أبي عمرو يوم بالرفع والتنوين لجملة لا تملك الخ في موضع الصفة له والعائد محذوف أي فيه والامر كما قال في الكشف واحد الاوامر لقوله تعالى لمن الملك اليوم فان الامر

من شأن الملك المطاع واللام للاختصاص أي الامر له تعالى لا لغيره سبحانه لا شركة ولا استقلالا أي ان التصرف جميعه في قبضة قدرته عز وجل لا غير وفي تحقيق قوله تعالى لا تملك نفس لنفس شيئا لدلالته على ان الكل مسوسون مطيعون مشتغلون بحال انفسهم مقهورون بعبوديتهم لسطوات الربوبية وقيل واحد الامور اعني الشان وليس بذاك وقول قتادة فيما أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر أي ليس ثم أحد يقضي شيئا ولا يصنع شيئا غير رب العالمين تفسير لحاصل المعنى لا ايثار لذلك هذا وقوله وحده ليس بحجة يترك له الظاهر والمنازعة في الظهور مكابرة وأياما كان فلا دلالة في الآية على نفي الشفاعة يوم القيامة كما لا يخفى والله تعالى أعلم

سورة الانفطار

مكية عند الجميع، وهي تسعَ عَشْرةَ آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١﴾.

[٢] ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝٢﴾.

[٣] ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾.

[٤] ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾.

[٥] ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿إذا السماء انفطرت﴾ أي تشققت بأمر الله؛ لنزول الملائكة؛ كقوله: ﴿ويوم تشقَّق السماء بِالغمامِ ونُزِّل الملائِكة تنزِيلاً﴾. وقيل: تفطَّرت لهيبة الله تعالى. والفَطْر: الشَّقُّ؛ يقال: فطرته فانفطر، ومنه فَطَر ناب البعير: طلع، فهو بعير فاطر، وتفطَّر الشيء: شقَّق، وسيفٌ فُطار أي فيهُ شقوق؛ قال عنترة:

وسيفي كالعقِيقةِ وهو كِمعِي سِلاحِي لا أَفَلَّ ولا فُطَارا[١]

وقد تقدّم في غير موضع[٢]. ﴿وإذا الكواكِبُ انتثرتْ﴾ أي تساقطت؛ نثرتُ الشيء أنثره نثراً، فانتثر، والاسم النِّثار. والنُّثار بالضم: ما تناثر من الشيء، ودُرّ مُنثَّر، شدد للكثرة. ﴿وإذا البِحار فُجِّرتْ﴾ أي فجر بعضها في بعض، فصارت بحراً واحداً، على ما تقدّم. قال الحسن: فُجِّرت: ذهب ماؤها ويبِست؛ وذلك أنها أوّلاً راكدة مجتمعة، فإذا فُجِّرت تفرّقت، فذهب ماؤها. وهذه الأشياء بين يدي الساعة، على ما تقدّم في ﴿إذا الشمس كورت﴾. ﴿وإذا القبور بُعثِرت﴾ أي قُلِبت وأخرج ما فيها من أهلها أحياء؛ يقال: بعثرت المتاع: قلبته ظهراً لبطن، وبعثرت الحوض وبحثرته: إذا هدمته وجعلت أسفله أعلاه. وقال قوم منهم الفرّاء: «بعثِرت»: أخرجت ما في بطنها من الذهب والفضة. وذلك من أشراط الساعة: أن تخرج الأرض

---

(١) العقيقة: شعاع البرق الذي يبدو كالسيف. والكمع: الضجيع. (٢) راجع ١٦/ ٤.

ذهبها وفضتها. ﴿علمتْ نفسٌ ما قدَّمتْ وأخَّرتْ﴾ مثل: ﴿ينبأُ الإنسان يومئذٍ بما قدم وأَخر﴾، وتقدّم. وهذا جواب ﴿إذا السماء انفطرت﴾ لأنه قَسَم في قول الحسن وقع على قوله تعالى: ﴿عَلِمتْ نفسٌ﴾ يقول: إذا بدت هذه الأمور من أشراط الساعة ختمت الأعمال فعلمت كل نفس ما كسبت، فإنها لا ينفعها عمل بعد ذلك. وقيل: أي إذا كانت هذه الأشياء قامت القيامة، فحوسبت كل نفس بما عملت، وأوتيت كتابها بيمينها أو بشمالها، فتذكرت عند قراءته جميع أعمالها. وقيل: هو خبر، وليس بقسم، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى.

[٦] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾.

[٧] ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾.

[٨] ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾.

[٩] ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الإنسان﴾ خاطب بهذا منكري البعث. وقال ابن عباس: الإنسان هنا: الوليد بن المغيرة. وقال عكرمة: أبيّ بن خلف. وقيل: نزلت في أبي الأشدّ بن كَلَدَة الجُمَحِيّ. عن ابن عباس أيضاً: «ما غرك بربك الكريم» أي ما الذي غرك حتى كفرت؟ «بربك الكريم» أي المتجاوز عنك. قال قتادة: غره شيطانه المسلَّط عليه. الحسن: غره شيطانه الخبيث. وقيل: حمقه وجهله. رواه الحسن عن عمر رضي الله عنه. وروى غالب الحنفي قال: لما قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ يا أيها الإنسانُ ما غرك بربك الكريم ﴾ قال: «غره الجهل» وقال صالح بن مسمار: بلغنا أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾؟ فقال: «غره جهلُه». وقال عمر رضي الله عنه: كما قال الله تعالى: ﴿ إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾. وقيل: غره عفو الله، إذ لم يعاقبه في أوّل مرة. قال إبراهيم بن الأشعث: قيل للفُضَيل بن عياض: لو أقامك الله تعالى

يوم القيامة بين يديه، فقال لك: «ما غرك بربك الكريم»؟ ماذا كنت تقول؟ قال: كنت أقول غرّني سُتُورك المرخاة، لأن الكريم هو الستَّار. نظمه ٱبن السَّماك فقال:

يا كاتمَ الذنب أما تستحي ... واللّهُ في الخُلْوة ثانيكَا
غَرَّكَ من ربك إمهالُهُ ... وسَتْرُه طولَ مَساويكَا

وقال ذو النون المصريّ: كم من مغرور تحت السَّتْر وهو لا يشعر.

وأنشد أبو بكر بن طاهر الأبهري:

يا من غلا في العُجْب والتيهِ ... وغره طولُ تماديهِ
أَمْلَى لك الله فبارزته ... ولم تخف غِبّ مَعاصيهِ

وروي عن عليّ رضي الله عنه أنه صاحب غلام له مرات فلم يُلَبِّه، فنظر فإذا هو بالباب، فقال: مالك لم تُجبني؟ فقال. لثقتي بحلمك، وأمني من عقوبتك. فاستحسن جوابه فأعتقه. وناس يقولون: ما غرك: ما خَدَعك وسَوَّل لك، حتى أضعت ما وجب عليك؟ وقال ٱبن مسعود: ما منكم من أحد إلا وسيخلو الله به يوم القيامة، فيقول له: يٱبن آدم ماذا غرك بي؟ يا بن آدم ماذا عملت فيما علمت؟ يابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟ ﴿ الذِي خلقك ﴾ أي قدَّر خلقَك من نطفة ﴿ فسواك ﴾ في بطن أمك، وجعل لك يدين ورجلين وعينين وسائر أعضائك ﴿ فعدَّلك ﴾ أي جعلك معتدلاً سَوِيّ الخَلْق؛ كما يقال؛ هذا شيء معدّل. وهذه قراءة العامة، وهي ٱختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ قال الفراء: وأبو عبيد: يدل عليه قوله تعالى: ﴿ لقد خلقنا الإنسان فِي أحسنِ تقويم﴾. وقرأ الكوفيون: عاصم وحمزة والكسائي: «فعدَلك» مخففاً أي: أمالك وصرفك إلى أيّ صورة شاء، إما حسناً وإما قبيحاً، وإما طويلاً وإما قصيراً. وقال [موسى بن عليّ بن أبي رَباح اللَّخمي عن أبيه عن جده][(1)] قال: قال لي النبي ﷺ: «إن النطفة

(١) الزيادة من «تفسير الثعلبي» و «الطبري» و «الدر المنثور». والحديث كما رواه الثعلبي بعد السند: قال: قال رسول الله ﷺ لجده «ما ولد لك»؟ قال: يا رسول الله وما عسى أن يولد لي، إما غلاماً أو جارية. قال: «فمن يشبه» قال: فمن يشبه، أمه أو أباه؛ فقال النبي ﷺ. «لا تقل هكذا إن النطفة.. الحديث».

إذا ٱستقرت في الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم». أما قرأت هذه الآية ﴿فِي أي صورةٍ ما شاء ركبك﴾: «فيما بينك وبين آدم» [وقال عكرمة وأبو صالح: «في أي صورةٍ ما شاء ركبك»]: إن شاء في صورة إنسان، وإن شاء في صورة حمار، وإن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير. وقال مكحول: إن شاء ذكراً، وإن شاء أنثى. قال مجاهد: «فِي أي صورةٍ» أي في أي شبه من أبٍ أو أم أو عم أو خالٍ أو غيرهم. و «في» متعلقة بـ «ركبك»، ولا تتعلق بـ «عدَلك»، على قراءة من خفف؛ لأنك تقول عَدَلْت إلى كذا، ولا تقول عَدَلت في كذا؛ ولذلك منع الفراء التخفيف؛ لأنه قدّر «في» متعلقة بـ «عدَلك»، و «ما» يجوز أن تكون صلة مؤكدة؛ أي في أي صورة شاء ركبك. ويجوز أن تكون شرطية أي إن شاء ركبك في غير صورة الإنسان من صورة قِرد أو حمار أو خنزير، فـ «ما» بمعنى الشرط والجزاء؛ أي في صورة ما شاء يركبك ركبك.

قوله تعالى: ﴿كلا بل تكذبون بِالدِين﴾ يجوز أن تكون «كَلاَّ» بمعنى حقًّا» و «ألاَ» فيبتدأ بها. ويجوز أن تكون بمعنى «لا»، على أن يكون المعنى ليس الأمر كما تقولون من أنكم في عبادتكم غير الله محقُّون. يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ما غَرَّك بِربك الكرِيم﴾ وكذلك يقول الفراء: يصير المعنى: ليس كما غُررت به. وقيل: أي ليس الأمر كما تقولون، من أنه لا بعث. وقيل: هو بمعنى الردع والزجر. أي لا تغتروا بحلم الله وكرمه، فتتركوا التفكر في آياته. ٱبن الأنباريّ: الوقف الجيّد على «الدينِ»، وعلى «ركبك»، والوقف على «كَلاّ» قبيح. ﴿بل تكذبون﴾ يا أهل مكة ﴿بِالدينِ﴾ أي بالحساب، و «بل» لنفي شيء تقدم وتحقيق غيره. وإنكارهم للبعث كان معلوماً، وإن لم يجر له ذكر في هذه السورة.

[١٠] ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠﴾.

[١١] ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾.

[١٢] ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وإن عليكم لحافِظِين﴾ أي رُقباء من الملائكة ﴿كِراماً﴾ أي عليّ؛ كقوله: ﴿كِرام بَرَرَةٍ﴾. وهنا ثلاث مسائل:

الأولى - رُوِي عن رسول الله ﷺ «أكرمُوا الكرامَ الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين: الخِرَاءة[١] أو الجماع، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجرم [حائط][٢] أو بغيره، أو ليستره أخوه». ورُوي عن عليّ رضي الله عنه قال: «لا يزال المَلَكَ مولياً عن العبد ما دام بادِيَ العورة» ورُوِي «إن العبد إذا دخل الحمام بغير مئزر لعنه ملكاه».

الثانية - واختلف الناس في الكُفّار هل عليهم حفَظَة أم لا؟ فقال بعضهم: لا؛ لأن أمرهم ظاهر، وعملهم واحد؛ قال الله تعالى: ﴿يُعْرَف المجرِمون بِسِيماهم﴾. وقيل: بل عليهم حفظة؛ لقوله تعالى: ﴿كلا بل تُكَذبون بِالدينِ * وإن عليكم لحافِظِين * كِراماً كاتِبين * يعلمون ما تفعلون﴾. وقال: ﴿وأما من أوتِي كِتابه بِشمالِه﴾ وقال: ﴿وأما من أوتِي كِتابه وراء ظهرِهِ﴾، فأخبر أن الكفار يكون لهم كُتّاب، ويكون عليهم حفَظَة. فإن قيل: الذي على يمينه أيَّ شيء يكتب ولا حسنة له؟ قيل له: الذي يكتب عن شماله يكون بإذن صاحبه، ويكون شاهداً على ذلك وإن لم يكتب. والله أعلم.

الثالثة - سئل سفيان: كيف تعلم الملائكة أن العبدَ قد هم بحسنة أو سيئة؟ قال: إذا هم العبد بحسنة وجدوا منه ريح المسك، وإذا هم بسيئة وجدوا منه ريح النَّتْن. وقد مضى في «ق»[٣] عند قوله: ﴿ما يلفِظ من قولٍ إلا لديهِ رقِيب عتِيد﴾ زيادة بيان لمعنى هذه الآية. وقد كره العلماء الكلام عند الغائط والجماع، لمفارقة الملك العبد عند ذلك. وقد مضى في آخر «آلِ عِمران»[٤] القول في هذا. وعن الحسن: يعلمون لا يخفى عليهم شيء من أعمالكم. وقيل: يعلمون ما ظهر منكم دون ما حدّثتم به أنفسكم. والله أعلم.

---

(١) في أ، ب، ح، ط، ل: الخزاية، ورواية «روح المعاني» (٩/٣١٧): لا يفارقونكم إلا عند إحدى الغائط، والجنابة، والغسل.

(٢) الزيادة من «الدر المنثور» وفيه. سبب ورود الحديث أنه عليه السلام رأى رجلاً يغتسل بفلاة من الأرض. . . . الخ.

(٣) راجع ١٧/١١.

(٤) راجع ٤/٣١٠ فما بعدها.

[١٣] ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾. [١٤] ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾.

[١٥] ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾﴾.

[١٦] ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾﴾.

[١٧] ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنّ الأبرار لفِي نِعيم * وإِن الفجار لفِي جحيم﴾ تقسيم مثل قوله: ﴿فريق فِي الجنةِ، وفرِيق فِي السعِيرِ﴾. وقال: ﴿يومئذٍ يَصَّدَّعون * فأما الذِين آمنوا﴾ الآيتين. ﴿يَصْلَونها﴾ أي يصيبهم لهبُها وحَرّها ﴿يومَ الدينِ﴾ أي يوم الجزاء والحساب، وكرر ذكره تعظيماً لشأنه؛ نحو قوله تعالى: ﴿القارِعة ما القارِعة؟ وما أدراك ما القارِعة﴾ وقال ٱبن عباس فيما روي عنه: كل شيء من القرآن من قوله: «وما أدراك»؟ فقد أدراه، وكل شيء من قوله: «وما يُدْرِيك» فقد طُوِي عنه. ﴿يوم لا تملِك نفسٌ﴾ قرأ ٱبن كثير وأبو عمرو «يومُ» بالرفع على البدل من «يومُ الدينِ» أو ردا على اليوم الأوّل، فيكون صفة ونعتاً لـ «يوم الدينِ». ويجوز أن يرفع بإضمار هو. الباقون بالنصب على أنه في موضع رفع إلاّ أنه، نصب؛ لأنه مضاف غير متمكن؛ كما تقول: أعجبني يوم يقومُ زيد. وأنشد المبرد:

مِن أَيِّ يومَيَّ مِنَ الموتِ أَفِرّ ... أيومَ لم يقْدَرَ أم يومَ قُدِرْ

فاليومان الثانيان مخفوضان بالإضافة، عن الترجمة عن اليومين الأوّلين، إلا أنهما نصبا في اللفظ؛ لأنهما أضيفا إلى غير محضٍ. وهذا ٱختيار الفراء والزجّاج. وقال قوم: اليوم الثاني منصوب على المحل، كأنه قال في يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً. وقيل: بمعنى: إن هذه الأشياء تكون يومَ، أو على معنى يُدانون يومَ؛ لأن الدِّين يدل عليه، أو بإضمار ٱذكر. ﴿والأَمر يومئذٍ لِلّهِ﴾ لا ينازعه فيه أحد؛ كما قال: ﴿لِمنِ الملك اليومَ؟ لِلّهِ الواحِدِ القهارِ * اليوم تجزى كل نفس بِما كسبت لا ظلم اليوم﴾.

تمت السورة والحمد لله.